فإذا ما رأيتَ أهل النعيم والترف فى الدنيا فلا تحقد عليهم ؛ لأن نعيمهم يُذكِّرك ويُشوِّقك لنعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ[1] هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ذلك لأنهم فى نعيم دائم لا ينقطع ، وعطاء غير مجذوذ ، لا يفوتك بالفقر ولا تفوته بالموت ؛ لذلك ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] وأيُّ فزع مع هذه النعمة الباقية ؟ أو : لا يحزنهم فزع القيامة وأهوالها .

وقوله : ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء] فقد صدَقكم الله وَعْده ، وأنجزَ لكم ما وعدكم به من نعيم الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : ما يحدث من عذاب الكفار وتنعيم المؤمنين سيكون ﴿ يَوْمَ

(١) قال مجاهد : تتلقاهم الملائكة الذين كانوا قرناءهم فى الدنيا يوم القيامة فيقولون : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنة . أخرجه ابن أبى حاتم وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٨٣) .

نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] و (يوم) : زمن وظَرْف للأحداث ، فكأن ما يحدث للكافرين من العذاب والتنكيل ، وما يحدث للمؤمنين من الخلود في النعيم يتم في هذا اليوم .

والسجل : هو القرطاس ، والورق الذي نكتب فيه يُسمَّى سجلاً ؛ ولذلك الناس يقولون : نسجل كذا ، أي : نكتبه في ورقة حتى يكون محفوظاً ، والكتاب : هو المكتوب .

والحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ وَالسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر] يطويها بقدرته ؛ لأن اليمين عندنا هي الفاعلة في الأشياء ، ولكن لا نأخذ الطي أنه الطي المعروف ، بل نأخذه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] يدلنا على أن الحق سبحانه يتكلم عن الخَلْق الأول و ﴿ نُّعِيدُهُ.. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] تدل على وجود خَلْق ثان .

إذن : فقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ[1] الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم] دليل على أن الخَلْق الأول خَلْقٌ فيه الأسباب وفيه المسبِّب ، فالحق سبحانه أعطاك في الدنيا مُقوِّمات الحياة من : الشمس والقمر والمطر والأرض والماء .... الخ ، وهذه أمور لا دَخْلَ لك فيها ، وكل ما عليك أنْ تستخدمَ عقلك الذي خلقه الله في الترقي بهذه الأشياء والترف بها .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٧٢١/٥) : « رُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « تُبدَّل الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى ، مَنْ كان في بطنها ففي بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها » ذكره الغزنوي .

أما فى الخلق الثانى فـأنت فقط تستقـبل النعيم من الله دون أخْذ بالأسباب التى تعـرفها فى الدنيا ؛ لأن الآخرة لا تقوم بالأسـباب إنما بالمسـبِّب سبحـانه ، وحين ترى فى الجنة مـا لا عين رأت ، ولا أذن سـمعتْ ، ولا خطر على قلب بشـر تعـلم أن فعْـل ربك لك أعظم من فعْلك لنفسك .

ومهـما ارتقتْ أسبـاب الترف فى الدنيـا ، ومهمـا تفنَّن الخَلْق فى أسباب الراحة والخـدمة الراقية ، فقصـارى ما عندهم أن تضغط على زِرٍّ يفـتح لك الباب ، أو يُحـضِر لك الـطعام أو القـهوة ، لكن أتحـدَّى العالم بما لديـه من تقدُّم وتكنولوجيا أنْ يُقدم لى مـا يخطر ببالى من طعام أو شراب ، فأراه أمامى دون أنْ أتكلم ؛ لأن هذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

فقوله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيـدُهُ .. (١٠٤) ﴾ [الأنبـياء] فالمعنى ليستْ مجرد إعادته كما كان ، إنمـا نعيده على أرْقى وأفضل مما كان بحيث يصل بك النعـيم أنْ يخطرَ الشىء ببالك فتـجده بين يديك ، بل إنَّ المؤمن فى الجنة يتناول الصنف من الفاكهة فيقول : لقد أكلتُ مثل هذا من قبل[1] فيُقـال له : ليس كذلك بل هو أفضل مـما أكلْتَ ، وأهنأ مما تذوقتَ . فلو تناولتَ مـثلاً تفاح الدنيا تراه خاضعاً لـنوعية التُّرْبة والماء والجـو المحيط به والمبـيدات التى لا يستـغنى عنها الزرع هذه الأيام ... إلخ . أمَّـا تفاح الآخـرة فهـو شىء آخر تمـاماً ، إنه صَنْعـة ربانية وإعداد إلهىّ .

وكان الحـق سبحـانه يلفت عبـاده إلى أن عنايته بهم أفـضل من

---

(١) هذا قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] .

عنايتهم بأنفسهم ؛ لأنه سبحانه أَوْلَى بنا من أنفسنا ، ولكي نعلم الفرق بين الشيء في أيدينا والشيء في يده عز وجل .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : لا يُخرِجنا شيء عمَّا وعدنا به ، ولا يخالفنا أحد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

والكَتْب : التسجيل ، لكن علم الله أزليٌّ لا يحتاج إلى تسجيل ، إنما التسجيل من أجلنا نحن حتى نطمئن ، كما لو أخذتَ من صاحبك قَرْضاً وبينكما ثقة ، ويأمن بعضكم بعضاً ، لكن مع هذا نكتب القَرْض ونُسجِّله حتى تطمئن النفس .

ومعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الزبور : الكتاب الذي أُنزل على نبي الله داود ، ومعنى الزبور : الشيء المكتوب ، فإنْ أطلقتَها على عمومها تُطلَق على كل كتاب أنزله الله ، ومعنى : ﴿ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] الذكْر : يُطلَق مرة على القرآن ، ومرة على الكتب السابقة . وما دام الزبور يُطلَق على كل كتاب أنزله الله فلا بُدَّ أن للذكر معنى أوسع ؛ لذلك يُطلَق الذكر على اللوح المحفوظ ، لأنه ذكْر الذكر ، وفيه كل شيء .

فمعنى : ﴿ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] أي : في الكتب التي

(١) الزبور والكتاب واحد ، ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . وقال سعيد بن جبير : الزبور : التوراة والإنجيل والقرآن . (تفسير القرطبي ٦/٤٥٢٩) .

أُنزلَتْ على الأنبياء ما كتبناه في اللوح المحفوظ ، أو ما كتبناه في الزبور ، لا أنّ سيدنا داود أعطاه الله فوق ما أعطى الآخرين .

ومعنى : ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] هذه تدل على أن واحداً أسبق من الآخر ، نقول : القرآن هو كلام الله القديم ، ليس في الكتب السماوية أقدم منه ، والمراد هنا ﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] بعدية ذكْرية ، لا بعدية زمنية .

فما الذي كتبه الله لداود في الزبور ؟ كتب له ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] كلمة الأرض إذا أُطلقَتْ عموماً يُراد بها الكرة الأرضية كلها .

وقد تُقيَّد بوصف معين.كما في : ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ..(٢١)﴾ [المائدة] وفي : ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ .. (٨٠)﴾ [يوسف] أي : التي كان بها .

وهنا يقول تعالى : ﴿أَنَّ الأَرْضَ .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أي : الأرض عموماً ﴿يَرِثُهَا .. (١٠٥)﴾ [الأنبياء] أي : تكون حقاً رسمياً لعبادي الصالحين . فأيُّ أرض هذه ؟ أهي الأرض التي نحن عليها الآن ؟ أم الأرض المبدلة ؟

ما دُمْنَا نتكلّم عن بَدْء الخَلْق وإعادته ، فيكون المراد الأرض المبدلَة المعادة في الآخرة[1] ، والتي يرثها عباد الله الصالحون ، والإرْث هنا كما في قوله تعالى : ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ [الأعراف]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٦/٤٥٣٠) : « أحسن ما قيل فيه أنه يُراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما » .

فعن مَنْ ورثوا هذه الأرض ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الخَلْق أعدَّ الجنة لتسعَ كلَّ بنى آدم إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتسع كُلَّ بنى آدم إنْ كفروا ، فليس فى المسألة زحام على أىِّ حال . فإذا ما دخل أهلُ الجنة الجنةَ ، ودخل أهلُ النار النارَ ظلَّتْ أماكن أهل النار فى الجنة خالية فيُورثها الله لأهل الجنة ويُقسِّمها بينهم ، ويُفسح لهم أماكنهم التى حُرِم منها أهل الكفر .

أو نقول : الأرض يُراد بها أرض الدنيا[1] . ويكون المعنى أن الله يُمكِّن الصالح من الأرض ، الصالح الذى يَعْمُرها ولو كان كافراً ؛ لأن الله تعالى لا يحرم الإنسان ثمار عمله ، حتى وإنْ كان كافراً ، يقول تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

لكن عمارة الكفار للأرض وتكوينهم للحضارة سَرْعان ما تنزل بهم النكبات ، وتنقلب عليهم حضارتهم ، وها نحن نرى نكبات الأمم المرتقية والمتقدمة وما تعانيه من أمراض اجتماعية مستعصية ، فليست عمارة الأرض اقتصاداً وطعاماً وشراباً وترفاً . ففى السويد - مثلاً - وهى من أعلى دول العالم دَخْلاً ومع ذلك بها أعلى نسبة انتحار ، وأعلى نسبة شذوذ ، وهذه هى المعيشة الضَّنْك التى تحدَّث عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالضَّنْك لا يعنى فقط الفقر والحاجة ، إنما له صور أخرى كثيرة .

---

(١) عن ابن عباس : إنها أرض الأمم الكافرة ، ترثها أمة محمد ﷺ بالفتوح [تفسير القرطبى ٦ / ٤٥٣٠] .

إذن : لا تَقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حُسْبانك كُلَّ النواحى الأخرى ، فمَنْ أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أمّا الصلاح الدينى والخُلقى والقِيَمى فهو سبيل لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهكذا تشمل الآية : ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء] الصلاح المادى الدنيوى ، والصلاح المعنوى الأخروى ، فإنْ أخذتَ الصلاح مُطلقاً بلا إيمان ، فإنك ستجد ثمرته إلى حين ، ثم ينقلب عليك ، فأين أصحاب الحضارات القديمة من عاد وثمود والفراعنة ؟

إن كُلَّ هذه الحضارات مع ما وصلتْ إليه ما أمكنها أن تحتفظ لنفسها بالدوام ، فزالتْ وبادتْ .

يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠)﴾ [الفجر]

إنها حضارات راقية دُفنَتْ تحت أطباق التراب ، لا نعرف حتى أماكنها . أمّا إنْ أخذت الصلاح المعنوى ، الصلاح المنهجى من الله عز وجل فسوف تحوز به الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن حركة الحياة تحتاج إلى منهج يُنظِّمها : افعل كذا ولا تفعل كذا . وهذا لا يقوم به البشر أمّا ربُّ البشر فهو الذى يعلم ما يُصلحهم ويُشرِّع لهم ما يُسعدهم .

إن منهج الله وحده هو الذى يأمرنا وينهانا ، ويخبرنا بالحلال والحرام ، وعلينا نحن التنفيذ ، وعلى الحكام وأولياء الأمر الممسكين بميزان العدل أنْ يراقبوا مسألة التنفيذ هذه ، فيُولُّوا مَنْ يصلُح للمهمة ، ويقوم بها على أكمل وجه ، وإلا فسد حال المجتمع ، الحاكم

يُشـرف ويُراقب ، يُشـجِّع العـامل ويُعـاقب الخـامـل ، ويضع الرجل المناسب فى مكانه المناسب .

فعناصر الصلاح فى المجتمع : علماء يُخططون ، وحكام يُنفِّذون ، ويديرون الأمور ، وكلمة حاكم مأخوذة من الحكَمة (بالفتح) وهى : اللجام الذى يكبح الفَرس ويُوجِّهها .

لذلك جاء فى الـحديث الشريف : « مَنْ ولَّى أحـداً على جمـاعة ، وفى الناس خير منه لا يشم رائحة الجنة »[1] .

لماذا ؟ لأن ذلك يُشيع الفساد فى الأرض ، ويُـثبِّط العزائم العالية والهـمم القـوية حـين ترى مَـنْ هو أقلّ منك كـفـاءة يتـولّى الأمـر ، وتُستبـعد أنت . أما حين تعـتدل كفّة المـيزان فسوف يجتـهد كُلٌّ منّا ليصل إلى مكانه المناسب .

إذن : مهمة الحكام وولاة الأمر ترقية الـمجتمع ، فلا نقول لحاكم مثـلاً يُعدُّ لنا طعامـاً ، أو يصنع لنا آلة ، فليستْ هذه مـهمتـه ، ولقد رأينا أحـد الأمراء وكـان له أرض يزرعـها ، يتـولاها أحـد الموظفـين يقولون له (الخُولى) ومهمة الخولى الإشراف والمراقبة .

وفى يوم جاء الأمـير ليباشـر أرضه ويتفقـد أحوالها فى صُحْـبة الخولى ، وفى أثناء جـولتهما بالأرض رأى الخولى قناةً يـنسابُ منها الماء حتى أغرق الزرع فنزل وسدَّ القناة بنفسه .

وعندها غضب الأمـير وفصله من عمله ؛ لأنه عمـل بيده فى حين أن مهمته الإشراف ولديه من العمال مَنْ يقوم بمثل هذا العمل .

(١) عن أبى بكر رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : « من ولى من أمـر المسلمـين شيـئاً فأمّر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١) .

لكن ، لماذا هذه النظرة فى إدارة الأعمال ؟ قالوا : لأنك إنْ عملتَ بيدك فأنت واحد ، لكن إنْ أشرفتَ فيمكن أنْ تُشرف على آلاف من العمال . ومن هنا جاءت مسألة التخصُّص فى الأعمال .

وعلى الحاكم وولىّ الأمر أنْ يحافظ على منهج الله ، ويتابع تطبيق الناس له ، فيقف أمام أى فساد ، ويأخذ على يد صاحبه ، ويثيب المجتهد العامل ، كما جاء فى قوله تعالى فى قصة ذى القرنين :

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف]

ذلك ، لأن الله تعالى يزَعُ بالسلطان مَا لا يزع بالقرآن ، ولو تركنا أهل الفساد والمنحرفين لجزاء القيامة لفسد المجتمع ، لا بُدَّ من قوة تصون صلاح المجتمع ، وتضرب على أيدى المفسدين ، لا بُدَّ من قوة تمنع مَنْ يتجرؤون علينا ويطالبون بتغيير نظامنا الإسلامى .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ .. (٦٠)﴾ [الأنفال] لا بُدَّ أن يعلم العدو أن لديك الرادعَ الذى يَردعه إن اعتدى عليك أو حاول إفساد صلاح المجتمع .

لذلك ، فالنبى ﷺ يقول فى الحديث[1] إن السهم الذى يُرمى فى سبيل الله ، لكل مَنْ شارك فى إعداده ورميه جزء من الثواب ، فالذى قطعه من الشجرة والذى براه ، والذى وضعه فى القوس ورمى به ؛ لأن فى ذلك صيانةً للحق وصيانة للصلاح حتى يدوم ، ولا يفسده أحد .

(١) عن عقبة بن عامر قال قال ﷺ : « إن الله عز وجل يُدخل الثلاثة بالسهم الواحد الجنة : صانعه يحتسب فى صنعه الخير ، والممد به ، والرامى به » أخرجه الدارمى فى سننه (٢/٢٠٤) والترمذى فى سننه (١٦٣٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٨١١) .

والمسئولية هنا لا تقتصر على الحكام وولاة الأمر ، إنما هى مسئولية كل فرد فيمن ولى أمراً من أمور المسلمين ، كما جاء فى الحديث : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته : فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بَعْلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »(١) .

وعلى العامل ألاَّ ينظرَ إلى مراقبة صاحب العمل ، وليكُنْ هو رقيباً على نفسه ، والله عز وجل يراقب الجميع ، وقد جاء فى الحديث القدسى « إن كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخَلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنِّى أراكم فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ » .

والمتأمل فى حركة الحياة يجدها متداخلة ، فمثلاً لو أردتَ بناء بيت ، فالهندسة حركة ، والبناء حركة ، والكهرباء حركة ، والنجارة حركة ، وهكذا .. ، فلو قلنا : إن هذا العمل يتكون من مائة حركة مثلاً ، فإنك لا تملك منها إلا حركة واحدة هى عملك الذى تتقنه ، والباقى حركات لغيرك ، فإنْ أخلصتَ فيما للناس عندك ألهمهم الله أنْ يخلصوا لك ولو عن غير قصد ، فأنت أخلصتَ وأتقنتَ حركة واحدة ، وأخلص الناس لك فى تسع وتسعين حركة .

واعلم أن الخواطر والأفكار بيد الله سبحانه ، فإنْ راقبتَ الله فيما للناس عندك راقبهم الله لك فيما لك عندهم ، وكفاك مُؤْنة المراقبة ، فقد يصنع لك الصانع شيئاً ، ويريد أنْ يغشَّك فيه فيحول الله بينه وبين

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، وأحمد فى مسنده (٢/٥٤ ، ١١١) ، والبخارى فى صحيحه (٢٤٠٩) .

هذا ؛ ربما يجلس معه أحد معارفه فيستحى أن يغش أمامه ، أو لا يجد الشىء الذى يغشك به ، أو غير ذلك من الأسباب التى يُسخِّرها الله لك ، فيتقن لك الصانع صَنْعته ، ولو رَغْماً عن إرادته .

إذن : إن أردتَ صلاحَ أمرك فأصلح أمور الآخرين .

ومن الأساسيات التى نُصلح بها ونرث الأرض أن ننظر إلى الناس جميعاً على أنهم سواسية ، لا فضلَ لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح ، فليس فينا مَنْ هو ابن لله عز وجل ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. (١٣) ﴾ [الحجرات]

والإسلام لا يعرف الطبقية إلا فى إتقان العمل ، فقيمة كل امرىء ما يُحسنه ، وقد ضربنا لذلك مثلاً ، وما نزال نذكره مع أنه لرجل غير مسلم ، إنه رجل فرنسى كان نقيباً للعمال ، وكان يدافع عن حقوقهم ، ويطلب لهم زيادة الدَّخْل من ميزانية الوزارة ، فلما تولى منصب الوزارة وتولى المسئولية عدلَ عمَّا كان يطالب به ، فضجَّ العمال ، وأراد أحدهم أنْ يغيظه فقال له : اذكر يا معالى الوزير أنك كنت فى يوم من الأيام ماسح أحذية ، فما كان من الرجل إلا أن قال : نعم .. لكنى كنت أجيدها .

وسبق أن ذكرنا أن الله تعالى وزَّعَ المواهب والقدرات بين خَلْقه ، فساعة ترى نفسك مُميزاً على غيرك فى شىء فلا تغتر به ، وابحثْ فيما مُيِّز به عنك غيرُك ؛ لأننا جميعاً عند الله سواء ، لا يحابى منا أحداً على أحد ، فأنت مُميز بعلمك أو قوتك ، وغيرك أيضاً مُميز فى سعادته مع أهله أو فى أمانته وثقة الناس به ، أو فى رضاه بما قسم له أو فى مقدرته على نفسه ورضاه بالقليل ، وقد يُميَّز الواحد منَّا بالولد الصالح الذى يكون مِطْواعاً لأبيه ، وقُرة عَيْن له .

إذن : هذه مسألة مُقدَّرة محسوبة ؛ لأن ربك سبحانه قيُّوم عليك ، لا تخفى عليه منك خافية ، وحين يُميِّز بعضنا على بعض إنما ليدكّ فينا الغرور والكبرياء ، وينزع من قلوبنا الحقْد والغلّ ، وهكذا يتوازن المجتمع، ولا يكون التميز مثار حقد ؛ لأنَّ تميزَ غيرك لصالحك ، وسيعود عليك .

والحق - سبحانه وتعالى - يُحدِّثنا عن يوم القيامة ، وكيف أن الشمس ستدنو من الرؤوس ، ويشتدّ بالناس الكرب ، إلا هؤلاء الذين يُظلُّهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله ، ذلك لأنهم كانوا مظلة أمان فى الدنيا ، فأظلَهم الله فى الآخرة .

كما جاء فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلَّق فى المَساجد ، ورجلان تحابًا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[1] .

نعم ، لقد صنع هؤلاء بسلوكهم القويم مظلَّة أمانٍ فى الكون ، فاستحقوا مظلَّة الله فى الآخرة . وبمثل هؤلاء يتوازن المجتمع المسلم ويَرْقَى إلى القمة ، هذا المجتمع الذى نريده هو مجتمع غنيّه متواضع ، وفقيره كريم شريف ، وشابُّه طائع .

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى : « أحب ثلاثة وحبِّى لثلاثة أشدُّ - فهؤلاء ستة نقسمهم إلى قسمين - أحب الفقير

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٦٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .